محمود درويش وجائزة اللوتس

قبل ثلاث وعشرين سنة كان الصبي محمود درويش يعاني ليلا امر واطول من ليل امريء القيس ، وهو يزحف مع اهالي البروة ، تاركين سهول فلسطين وبياراتها ، يطوون الجبال والانجاد وعيونهم تنحر صدر الجبال السوداء الوحيدة ، تبحث عن لبنان . ان احدا من قافلة المشردين تلك ، لم يدر بخلده بان هذا الصبي الناحل ، الذي يبدو وكأن السماء قبلته بعينيه ، سيحمل يوما ما صليب فلسطين ، وتصبح شفتاه قيثارة لاعذب الالحان الفلسطينية واشجاها .

لقد كانت سنواته الست يومذاك اعجز من ان تفهم لماذا وكيف يترك الانسان بيته وملاعب صباه واشياءه الجميلة ، وهكذا بلا سبب وبتر تعسفي يضيع الحلم من يديه الصغيرتين لتتقيدا بهموم التفكير والتأمل الذي خلق لراس اكبر من راسه . وكانت هذه الاحداث اول وسم في نفس الفتى ترك اخاديد عميقة في حياته انعكست في شعره .

ويعود محمود من لبنان متسللا كما خرج هاربا يلوذ باكناف الظلام ، ورغم وعورة الطريق ، تغمر فرحة العودة الى مرابع الصبا قلبه الصغير. ولكنه سرعان ما يجد نفسه في دير الاسد ، تطل البروة عليه او يطل عليها صباح مساء ولا يستطيع الخطو على ترابها ، « حرام على بلابله الدوح » ، ويبقى محمود في وطنه حاضرا غائبا ، بموجب القانون ، الذي لا يزال يحاصره حتى الان ويمنع عنه الحصول على الجنسية ، حتى انه قبل سنتين عندما دعاه المفكر الفرنسي رودنسون الى باريس ، منعته السلطات الفرنسية من دخولها بسبب عدم اكتمال قانونية اوراقه . فنام ليله في المطار واقتيد في الصباح مخفورا الى اول طائرة متجهة الى بولونيا .

هكذا كانت طفولة محمود تختلط فيها احلام الصغار بهموم الكبار ، وتمتزج فيها ظلال حياته الخاصة بكآبة المأساة العامة ، لاجيء في لبنان، ولاجيء في وطنه فلسطين . سجين في البيت وسجين في الشارع ، وسجين في السجن ، وسجين في السفر . حصار من كل جانب ، فكان من قدره ان يحمل صورة ذلك الوطن في عينيه وفي قلبه وعلى لسانه ، صورة كما يراها ، وكما يفرض الواقع رؤيتها ، وكما يطمح مستقبلا ان تكون ،

التقيت به اول مرة في مهرجان شعري عقد في عكا سنة ١٩٥٨ ، ويومها كانت المهرجانات الشعرية هي المنابر التي يلتقي بها الشعر والشعب بالمأساة ، كان لا يزال في ثانوية كفرياسين ، وانشد تلك الليلة قصيدة طويلة ، ولما سألني رأيي ، وكان يجلس صدفة الى جانبي ، قلت : هذا الزخم الكافي في بعض ابيات القصيدة ، وهذه الحرارة المتألقة في روحها وتلك الشفافية في صورها ستجعل منك شاعر الارض المحتلة يوم تتخلص من تكرار الصورة ، والركاكة التي يفرضها عليك تركيب القصيدة الكلاسيكي .

ويقينا فلقد كان محمود يبشر بشاعرية خصبة موهوبة وكان يبحث عن الطريقة التي تزاوج بين الرومانسية وبين واقعية الموضوعات التي تشده اليها، اذ انه في تلك الفترة بدأت افكاره القومية والاجتماعية تتبلور بخط متواز مع شعره، فانتمى الى « حركة الارض » القومية في اواخر الخمسينات ، ولما لوحقت هذه الحركة واغلقت صحيفتها ، كتب في صحيفة الحزب الشيوعي الاسرائيلي « الاتحاد » فوجد فيها منبرا لشعره . ثم انضم نهائيا الى الحزب وبقي ينقي قصائده الوطنية ذات المحتوى الاجتماعي التقدمي الانساني ، ومحور ولائه يدور حول قضية فلسطين .

لقد صدر عام ١٩٦٠ ديوان محمود الاول « عصافير بلا اجنحة » ومع انه كان يحمل بذرة فنية طيبة ، الا انه كان تعبيرا عن محاولات شعرية غير متكاملة البناء الفني .

وفي عام ١٩٦٤ اصدر ديوانه الثاني « اوراق الزيتون » ، كان عبارة عن وثبة الى الامام في المضمون والاطار اذ انتقل بموضوعاته الشعرية الى مضامين اكثر جدية ووعيا ، فكيفما تنقلت في قصائد الديوان تعبق امامك رائحة الريف والجذر المتشبث بالارض . ولعل ابرز قصائد الديوان ، بطاقة هوية .

اما ديوان محمود الثالث « عاشق من فلسطين » فقد صدر عام ١٩٦٦ .

انه حدث في هذا الديوان تغير في النبرة ، فالصوت فيه همسة سحبة الكمان ، والاشارة الموحية تحل مكان شرح تفاصيل الصورة .